ملامح التجديد العقدي عند العلامة ابن باديس من خلال كتابه "العقائد الإسلامية من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية"

د. عمر مبركي
أستاذ باحث بمؤسسة دار الحديث الحسنية بالرباط- المغرب-

مقدمة:

يعتبر الشيخ عبد الحميد بن باديس من العلماء الأعلام والمصلحين الكبار، الذين كان لهم دور رائد في تحرير البلاد الجزائرية وبناء نهضتها السياسية والثقافية، فقد ندب نفسه،رحمه الله،لتحقيق أمل الأمة وغايتها، وهي: تحريرها من نير الظلم والاحتلال، وتخليصها من وطأة الانحطاط والذل والهوان.. وقد أدرك رحمه الله – بنباهته وفطنته التي يعرفها الخاص والعام – أن المدخل الصحيح للإصلاح والبوابة المشرعة إليه هي: بناء جيل من الجزائريين الحاملين لهموم بلادهم الملتزمين بقواعد القرآن وأصول العقيدة الصحيحة، التي توقظ القلوب بعد موات وتحيي العقول بعد سبات. ومن هذا المنطلق، اعتنى ابن باديس عناية خاصة بتربية الأجيال وتعليمها، فكان له رحمه الله نشاط دعوي وتعليمي لافت، إذ كان مشرفا على مئات التلاميذ في معهده بالجامع الأخضر بقسنطينة، تعليما وتربية وإطعاما.وكان ينظم دروسا خاصة موجهة للشباب في مدرسة التربية والتعليم بقسنطينة صباح كل أحد ومساءه، ويلقي دروسا أخرى يحضرها العامة والطلبة على السواء، كدرسه في التفسير، ودرسه في شرح الموطأ بعد صلاة الظهر، وذلك كل يوم عدا يومي الخميس والجمعة.

وتتويجا لهذا المسار العلمي والتربوي الحافل، أنتج رحمه الله مؤلفات في علوم مختلفة، منها: "مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير"، و"مجالس التذكيرمن كلام البشيرالنذير"، و"مبادئ الأصول".. ولا شك في أن هذه المؤلفات كلها، تصدرعن خلفية تجديدية واضحة، تظهرمن خلال النفس الذي يناقش به الموضوعات ويقارب المسائل ويتناول القضايا.

وإن من أهم المصنفات التي تعبربوضوح عن المنزع التجديدي عند العلامة ابن باديس، كتابه الموسوم بـ"العقائد الإسلامية من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية"، والذي سنحاول في هذا البحث أن نجلي بعض ملامح التجديد ومعالم الوسطية فيه.

وقبل الولوج لقراءة هذا المتن، لا بد من التذكيربمسألة منهجية نراها في غاية الأهمية، وهي أن الهدف من هذه الورقات ليس هو حشر ابن باديس في زاوية مذهبية معينة، ولا وضعه في قالب عقدي ما، فهذا ليس همنا ولا غايتنا.. بل الغاية هي محاولة الوقوف عند بعض مناحي التجديد في هذا المتن العقدي كما أشرنا إلى ذلك، حتى تكون نبراسا يقتدي به المهتمون بمشروع إحياء الدرس العقدي، وكذاالمتهممون بالنهضة العلمية والحضارية للأمة قاطبة.

"العقائد الإسلامية" لابن باديس: السياق والملابسات

كان القطرالجزائري، في الزمن الذي عاش فيه ابن باديس، غارقا تحت وطأة الاحتلال الفرنسي الظالم، الذي سعى إلى فصله عن قيمه وأصالته، وإلى تذويب هويته وطمس معالمها الثقافية والحضارية.كل ذلك في غياب شبه تام للممانعة الفكرية والثقافية التي يمكن أن يضطلع بها الطلبة والعلماء والمثقفون.

يقول ابن باديس مصورا الحالة المزرية التي كانت عليها الجزائر إبان الاحتلال: "كان، أي المجتمع الجزائري، قريبا من الفناء، ليس له مدارس تعلمه، وليس له رجال يدافعون عنه ويموتون عليه، بل كان في اضطراب دائم ومستمر..

و يا ليته كان في حالة هناء، وكان أبناؤنا يومئذ لا يذهبون إلا للمدارس الأجنبية التي لا تعطيهم غالبا من العلم إلا الفتات الذي يملأ أدمغتهم بالسفاسف، حتى إذا خرجوا منها، خرجوا جاهلين دينهم ولغتهم وقوميتهم وقد ينكرونها، هذه هي الحالة التي كنا عليها في تاريخنا الحديث"[1].

لقد كان المحتل الفرنسي واعيا –كل الوعي –بأنه لا يمكن أن يستولي على ثروات البلاد الجزائرية ومدخراتها، إلا بفصلها عن قيمها وعقيدتها، لذلك أمعن دهاقنته وأذنابه في إطفاء رموزها الدينية والوطنية، وفي القضاء على مؤسساتها الثقافية والتربوية والاجتماعية، في مقابل التمكين للغة الفرنسية والأفكار الوافدة.

في هذا المناخ عاش ابن باديس، والذي كان رحمه الله شديد الارتباط بمجتمعه وأمته، يألم لأحزانها وأتراحها، ويسر لآمالها وأفراحها، جاعلا نصب عينيه هدفا واحدا هو إنقاذ أبناء بلده من براثن الجهل والتخلف والاحتلال. وكانت الوسيلة التي اعتمدها في تحقيق هذا الهدف السامي هي إحياء العقيدة الصافية في نفوس الناشئة خاصة وأهل الجزائر عامة. ولهذا حرص رحمه الله على عقد حلق دراسية مسجدية في الجامع الأخضر بقسنطينة في الفترة ما بين 16 رجب 1353 هـ و 25 صفر 1354 (الموافقة لأكتوبر 1934 وماي 1935م)، وكان موضوعها هذه الدروس العقدية التي جمعت فيما بعد تحت عنوان "العقائد الإسلامية".

معالم التجديد عند ابن باديس من خلال "العقائد الإسلامية":

كان الإمام ابن باديس رحمه الله مستوعبا لعلوم متنوعة، حافظا للقرآن الكريم ومتمثلا لروحه، مطلعا على السنة النبوية ومعانيها، متزودا بآراء السلف المتقدمين، وفوق ذلك كان فقيها عالما بالتحديات التي تواجه أمته داخليا

1) الآثار لابن باديس: 3/266.

وخارجيا. فأفادته هذه الخصال العلمية التي لا تتوفر إلا للمجددين، في صياغة مشروعه التجديدي لعلم العقيدة، والذي يمكن أن نشير لبعض ملامحه، في الآتي:

أولا - ربط العقيدة بالعمل:

ويتجلى هذا الربط عند العلامة ابن باديس من خلال عنصرين بارزين، هما:

أ - ربط الإيمان بالعمل:

ارتكب المرجئة جرما عظيما في حق الأمة، لما دعوا لفصل الإيمان عن العمل، واعتقدوا كفاية النطق بالشهادتين في دخول الإيمان، مهما ارتكب الناطق من الجرائم والمعاصي والآثام.. فالعبرة عندهم بالنطق دون سواه. وفي هذا تبرير صريح للفواحش والمنكرات، وفتح لباب يصعب سده، وهو باب الاستهانة بالتشريعات والعبادات.

وقد زادت خطورة هذه التصورات، لما استثمرها المحتل وأذنابه في بث التواكل في نفوس الناس، وتربيتهم على الركون والخنوع، فدانت لهم الأمة وأذعنت، فاستنزفوا خيراتها وسيطروا على مدخراتها.

ولخطورة هذا الفهم وأثره البين فيما آلت إليه الأمة من ضعف واستسلام، بعد أن كانت عزيزة القدر مهابة الجانب، رأينا الإمام ابن باديس يصرح في عقيدته على أن الإيمان والعمل مترابطين لا ينفصلان، وأن العقيدة والسلوك لا يستقيم أحدهما دون الآخر.

قال ابن باديس رحمه الله مبينا أهمية العمل وأثره في كمال الإيمان: "توارد الإسلام والإيمان على الاعتقاد والنطق والعمل: الدين كله عقد بالقلب، ونطق باللسان، وعمل بالجوارح الظاهرة والباطنة، وكل واحد من الثلاثة يسمى إيمانا باعتبار، ويسمى إسلاما باعتبار آخر..."[1].

---

1) العقائد الإسلامية لابن باديس: 43.

ب - العمل والكد لا ينافي الإيمان بالقدر:

انتشر بين أفراد الأمة في زمن ابن باديس فهم فاسد لعقيدة الإيمان بالقدر، وهو اتخاذ الأخير حجة لهم على انحرافهم وانهزامهم.. فكان إذا اقترف أحدهم ذنبا أو ارتكب خطيئة، قال: إن الأمر قضاء وقدر ولا حيلة لي في دفعه.. وإذا فشل في عمل ما أو خاب سعيه في مهمة ألقى باللائمة على القضاء والقدر واتخذه ذريعة وسببا.

ثم انتقلت هذه العقيدة الفاسدة من فهم خاطئ لبعض الأفراد إلى عقيدة رهنت مصير الأمة وقيدت حركتها نحو التحرر والانعتاق، وهكذا صار الاحتلال قضاء وقدرا لا حيلة للمسلمين في رده أو مقاومته، وأصبح الاستسلام لبلايا الأمة وأدوائها المستعصية ركنا ركينا من عقيدة الإيمان بالقضاء والقدر!!

وصار الإيمان بالقضاء والقدر – بهذا المعنى الفاسد – حاجزا يحول بين المسلم وبين العمل والإبداع ويجره إلى دركات التخلف، ويكبح طاقاته الإيجابية، ويقيد حركيته وفاعليته.

لقد انتبه ابن باديس، وهو العالم العامل والمربي المصلح، لخطورة مثل هذه العقائد الخاطئة، فبين أن الإيمان بالقدر لا يضاد العمل بالشرع ولا يناقض الجد في السعي كما يتصور البعض ويعتقد.

يقول: "الشرع معلوم لنا، وصفه الله لنسير عليه أعمالنا. والقدر مغيب عنا، أمرنا الله بالإيمان به لأنه من مقتضى كمال العلم والإرادة من صفات ربنا. فالقدر في دائرة الاعتقاد والشرع في دائرة العمل. وعلينا أن نعمل بشرع الله ونتوسل إلى المسببات المشروعة بأسبابها"[1].

فلا تعارض إذن بين الإيمان والعمل، ولا تضاد بين الاعتقاد بالقدر والأخذ بالأسباب، فكلاهما، أي: القدر والعمل، من الله تعالى، فالله تعالى مقدر الأقدار

1) العقائد الإسلامية لابن باديس: 74.

هو الذي شرع الشرائع وأمر العباد بالكد والعمل. ودعوى التعارض بين الأمرين إنما وقعت من أصحاب الأهواء ومن المقصرين الذين ضعفت هممهم فركنوا للعجز والكسل، فبرروا ذلك بالاحتجاج بالقدر.

وأورد ابن باديس رحمه الله طائفة من الأحاديث النبوية التي تضمنت الحث على الجد في العمل وترك العجز والكسل، ومنها:

حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه، قال: (كنا في جنازة في بقيع الغرقد، فأتانا النبي صلى الله عليه وسلم فقعد وقعدنا حوله، ومعه مخصرة، فنكس فجعل ينكت بمخصرته، ثم قال: (ما منكم من أحد، ما من نفس منفوسة إلا كتب مكانها من الجنة والنار، وإلا قد كتب شقية أو سعيدة)،فقال رجل: يا رسول الله، أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل؟ فمن كان منا من أهل السعادة فسيصير إلى عمل أهل السعادة، وأما من كان منا من أهل الشقاوة فسيصير إلى عمل أهل الشقاوة، قال: "أما أهل السعادة فييسرون لعمل السعادة، وأما أهل الشقاوة فييسرون لعمل الشقاوة" ثم قرأ: (فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى)[1]"[2].

حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "المؤمن القوي، خيروأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خيراحرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء، فلا تقل لو أني فعلت كان كذا وكذا، ولكن قل قدرالله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان"[3].

وينبه ابن باديس رحمه الله على شبهة لها تعلق بما نحن فيه،وتتردد على ألسنة المقصرين المفرطين،وحاصلها: أن كل من أذنب ذنبا، أو ارتكب معصية

1) سورة الليل، آية 5، 6.

2) صحيح البخاري: كتاب الجنائز، باب موعظة الحديث عند القبر، وقعود أصحابه حوله، رقم: 1362.

3) صحيح مسلم: كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله، رقم: 8791.

فإنه يحتج بأنه مقدر عليه، وأنه أمر مقدور حاصل لا محالة، ومن ثم فما ذنب العاصي في معصيته، ما دامت مكتوبة عليه، وهؤلاء يستدلون بأن آدم عليه السلام، قد احتج بالقدر[1]، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قال: احتج آدم وموسى، فقال موسى: يا آدم أنت أبونا خيبتنا وأخرجتنا من الجنة، فقال له آدم: أنت موسى، اصطفاك الله بكلامه، وخط لك بيده، أتلومني على أمر قدره الله علي قبل أن يخلقني بأربعين سنة؟" فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "فحج آدم موسى، فحج آدم موسى"[2].

ولم يتطرق ابن باديس رحمه الله لتوجيه هذا الحديث وشرحه، انسجاما مع منهجه في الاختصار والتركيز على الأصول دون الفروع، وإنما اكتفى بالإشارة إلى نهي القرآن الكريم عن الاحتجاج بالقدر في ارتكاب الذنوب والمعاصي.

يقول: "لا يحتج بالقدر في الذنوب لأن حجة الله قائمة على الخلق بالتمكن والاختيار والدلالة الشرعية، بقوله تعالى: (وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم مالهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون)[3]"[4].

ثانيا – الدعوة إلى النظر ونبذ التقليد:

إن التقليد من أعظم الآفات التي ابتلي بها المسلمون، فحالت دون انعتاقهم ومواصلتهم لمسيرة التقدم والعطاء، وأسهمت في بقائهم تحت ربقة التخلف والجهل والعطالة الفكرية والحضارية. ولهذا، كان الهم الأعظم الذي شغل بال العلماء المجددين، خاصة في القرن العشرين، هو محاربة هذه الآفة والتصدي لها بكل الطرق والوسائل الممكنة. وفي هذا السياق يمكن أن نفهم دعوة ابن باديس إلى النظر وإعمال العقل في مسائل العقيدة خاصة والشريعة عامة.

1) القضاء والقدر ومذاهب الناس فيه للمحمود: 412.

2) صحيح مسلم، كتاب القدر، باب حجاج آدم وموسى عليهما السلام، رقم: 2652.

3) سورة الزخرف، آية 10.

4) العقائد الاسلامية: 76.

لقد بين رحمه الله أن من آكد الواجبات التي ينبغي على المسلم الالتزام بها، التأمل في آيات الله تعالى حتى يتحقق له الإيمان الجازم والتصديق الكامل.

يقول: "يجب على المؤمن مع تصديقه وجزمه أن ينظر في آيات الله ويستعمل عقله للفهم، كما تجب عليه جميع الواجبات في الإسلام. لقوله تعالى: (قل انظروا ماذا في السماوات والأرض)[1]، (فلينظر الإنسان مم خلق)[2]، (أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت)[3]"[4].

كما نص رحمه الله على أن من وسائل تقوية الإيمان النظر في الآيات الكونية المنظورة والمقروءة، كما أن من عوامل ضعفه التقليد وصرف النظر عن التدبر في كتاب الله المقروء.

يقول: "التصديق الذي هو الجزء الأصلي في الإيمان يقوى ويضعف: يقوى بالنظر في الآيات الكونية، والتدبر في الآيات السمعية، والتقرب بالعبادات الشرعية، ويضعف بضد ذلك. لقوله تعالى: (ولكن ليطمئن قلبي)[5]. ولقوله تعالى: (وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين)[6]"[7].

والنظر عند ابن باديس ليس مقتصرا على العلماء وحدهم، بل هو واجب على العوام بالقدر الذي تصله عقولهم وأنظارهم.

1) سورة يونس، آية 101.
2) سورة الطارق، آية 5.
3) سورة الغاشية، آية 17.
4) العقائد الإسلامية: 32.
5) سورة البقرة، آية 260.
6) سورة الأنعام، آية 75.
7) العقائد الإسلامية: 47.

يقول رحمه الله: "من عرضت له شبهة وجب عليه أن يبادر إلى إزالتها بالنظر بنفسه، أو بسؤال غيره من أهل العلم. لقوله تعالى: (وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فآتوا بسورة من مثله)[1] ولقوله تعالى: (فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك)[2] ولقوله تعالى: (فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون)"[3].

وإذا كان ابن باديس رحمه الله قد أوجب النظر على المكلفين، وألزمهم التأمل في الآيات الإلهية، إلا أنه لم يغال ولم يجاوز الحد في ذلك، ولم يلزم الناس بالتأمل على الطريقة اليونانية.. لقد سلك رحمه الله طريقا وسطا، هي طريقة القرآن الكريم. يقول: "النظر الواجب على المكلف، هو النظر على الطريقة التي جاء بها القرآن، كما في الآيات المتقدمة، ولقوله تعالى: (وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه)[4]"[5].

ثالثا – وصل العقيدة بالقرآن الكريم:

اعتنى القرآن الكريم عناية بالغة بتقرير العقائد الصحيحة في النفوس وتقريبها من العقول بأسلوب خال من التعقيد والتجريد، ووجد جيل الصحابة ومن تبعهم في هذا المنهج بغيتهم، فوقفوا عند حدود القرآن في مباحث العقيدة وقضاياها، فلزموها ولم يتجاوزوها، ساعدهم على ذلك سلامة ذوقهم اللغوي وصفاء سرائرهم وقربهم من مشكاة النبوة. وسارت الأمة على هذا المنوال إلى أن جاء المتكلمون الذين اضطرهم الدفاع عن حياض العقيدة الإسلامية للتوسل بآليات الحجاج والمجادلة، لكنهم أوغلوا في ذلك حتى صارت كتبهم عارية من

1) سورة البقرة، آية 27.
2) سورةيونس، آية 94.
3) العقائد الإسلامية: 33.
4) سورة التوبة، آية 6.
5) العقائد الإسلامية: 33.

الاستدلالات القرآنية والأحاديث النبوية، فحدث الانفصام بين العقيدة ومنبعها الأصيل، وهو القرآن الكريم.

وقد تعالت أصوات بعض العلماء منادية بتجديد هذا العلم، وذلك بإعادة وصله بمحضنه الأصلي ومعينه الأول الذي هو القرآن الكريم. ومن هؤلاء: العلامة ابن باديس رحمه الله، فقد كان في طليعة العلماء الذين انخرطوا في هذا المسار التجديدي لعلم العقيدة، فألف لأجل ذلك كتابه الموسوم ب "العقيدة الإسلامية من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية"، الذي وضع فيه العقائد على أسس من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الصحيحة.

إن القرآن الكريم، كما بين ذلك ابن باديس في كتابه "العقائد الإسلامية"، كتاب أنزله الله تعالى لهداية العالمين، وهو يحوي بين دفتيه علوم العقائد والشرائع، لذا فهو الطريق الأمثل والسبيل الأنجع لتعليم الناشئة الدين القويم، وتوطين العقيدة الصافية في عقولهم ونفوسهم.

يقول العلامة ابن باديس: "نؤمن بأن القرآن العظيم أنزله الله تعالى هداية عامة لجميع البشر لما فيه سعادتهم الدنيوية والأخروية بتحرير العقول، وتزكية النفوس، وتقويم الأعمال، وإصلاح الأحوال، وتنظيم الاجتماع البشري على أكمل نظام، وأن كل ما خالفه فهو ضال، لقوله تعالى: (كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور)[1] (فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون)[2] (وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين)3. ولقوله صلى الله عليه وسلم في خطبة عرفة في حجة الوداع: (وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم كتاب الله)[4]"[5].

1) سورة إبراهيم، آية 255.

2) سورة الأعراف، آية 157.

3) سورة الإسراء، آية 82.

4) صحيح البخاري: كتب الحج، باب حجة النبي صلى الله عليه وسلم، رقم: 1218.

5) العقائد الإسلامية لابن باديس: 82.

إن أهم ما يجلي هذا النفس التجديدي عند العلامة ابن باديس، ما يأتي:

- العنوان الذي وسم به كتابه، وهو: "العقائد الإسلامية من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية".

- المنهج الذي سلكه في سائر فصول كتابه، والقائم على بيان قواعد الإيمان والإسلام انطلاقا من القرآن الكريم والحديث الشريف.

- تعويله على القرآن في حل بعض المشكلات العقدية التي توسع فيها الخلاف: كمسألة القدر، ومسألة الصفات الخبرية، ومسألة حقيقة الإيمان وزيادته ونقصانه.. وغيرها.

إن الناظر في كتاب ابن باديس رحمه الله ليقف على حقيقة لا يمكن للعين أن تخطئها، وهي رجوعه إلى القرآن الكريم في كل صغيرة وكبيرة من مسائل العقيدة، إيمانا منه بأن الطريقة المثلى للاستدلال على وجود الله تعالى وصفاته وما يرجع إلى الغيبيات لا يكون إلا بالدليل القرآني والحديثي الذي يقطع العذر ويوجب الحجة.

ملامح الوسطية في "العقائد الإسلامية" لابن باديس:

إن من أبرز ملامح التجديد العقدي عند ابن باديس، زيادة على ما ذكرناه آنفا، تركيزه على إبراز تجليات الوسطية في مختلف أبواب العقيدة ومباحثها، وفي ما يلي بعض معالم ذلك:

أولا - الوسطية في باب الإيمان:

تقدم أن ابن باديس رحمه الله يربط الإيمان بالعمل والعقيدة بالسلوك، إلا أنه رحمه الله لم يغال في جانب العمل، كما غالى فيه بعض من أخرج المفرطين في العبادات وعمل الطاعات من دائرة الإيمان، وهم الخوارج الذين ابتليت بهم الأمة، لما نشروا لوثة التكفير والتفسيق بين أفرادها.

لقد التزم الإمام المذهب الوسط في هذه المسألة، فقرر أن الأعمال جزء من الإيمان وثمرة من ثمراته، فبها يترسخ ويزداد كمالا، ولذلك سمى الرسول صلى الله عليه وسلم الزكاة إيمانا، وسمى الحج إيمانا، وسمى الصلاة كذلك إيمانا، لأنها مبنية على التصديق والعمل.

وقرر أيضا، وهنا مكمن الوسطية عنده، أن تقصير المسلم في الطاعات، وتفريطه في العبادات لا يخرجه من زمرة المؤمنين الموحدين المصدقين بالله ورسوله الكريم.

قال رحمه الله: "من ضيع الأعمال لم يخرج من دائرة الإيمان، لقوله تعالى: (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما)[1] لحديث أبي بكر رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (إذا التقى المسلمان بسيفهما فالقاتل والمقتول في النار)[2]، فقلت: يا رسول الله هذا القاتل، فما بال المقتول، قال: (إنه كان حريصا على قتله)"[3].

ثانيا - الوسطية في باب الصفات الإلهية:

اختلف الناس في هذا الباب على طوائف: طائفة أنكرت ما يجب لله تعالى من الصفات، اعتقادا منهم أن إثبات صفات متعددة للخالق تشبيه وتجسيم وتسوية له تعالى بمخلوقاته.

وطائفة شبهت الخالق بالمخلوق، فجعلوا ما ورد من صفات الله جل وعلا مماثلا ومشابها لصفات المخلوقين، فقال بعضهم: (يد الله كيدي) و(سمع الله كسمعي)، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا، بل إن أحدهم اجترأ على مقام الألوهية، فقال: (ألزموني ما شئتم فإني ألتزمه إلا اللحية والعورة).

1) سورة الحجرات، آية 9.

2) صحيح البخاري: كتاب الإيمان، باب (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما)، رقم: 31.

3) العقائد الإسلامية: 51.

فهدى الله الإمام ابن باديس للقول الوسط في هذا الباب، وهو ما دل عليه كتاب الله وسنة رسوله، فأثبت لله تعالى ما أثبته لنفسه دون تشبيه ولا مماثلة ولا تكييف.

قال رحمه الله:" نثبت له ما أثبته لنفسه على لسان رسوله، من ذاته، وصفاته، وأسمائه، وأفعاله، وننتهي عند ذلك ولا نزيد عليه، وننزهه في ذلك عن مماثلة أو مشابهة شيء من مخلوقاته..."[1]. فأثبت رحمه الله الصفات الخبرية كالاستواء والنزول ونحوهما.. إثباتا يليق به عز وجل. يقول: "ونثبت الاستواء والنزول ونحوهما، ونؤمن بحقيقتهما على ما يليق به تعالى بلا كيف، وبأن ظاهرها المتعارف في حقنا غير مراد.. لقوله تعالى: (ويحذركم الله نفسه)[2] (تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك)[3] ولحديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال: بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عشرة منهم: خبيب الأنصاري، فلما خرجوا من الحرم ليقتلوه، قال:

ولست أبالي حين أقتل مسلما ... على أي شق كان لله مصرعي،

وذلك في ذات الإله وإن يشأ ... يبارك على أوصال شلو ممزع،

فقتله ابن الحارث، فأخبر النبي صلى الله عيه وسلم أصحابه خبرهم يوم أصيبوا[4].

ولقوله تعالى: (قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى)[5]، (ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها)[6]، (الذي خلق فسوى والذي قدر

1) نفسه: 59.

2) سورة آل عمران، آية 28.

3) سورة المائدة، آية 116.

4) صحيح البخاري: كتاب التوحيد، باب ما يذكر في الذات والنعوت وأسامي الله، رقم، 7402.

5) سورة الإسراء، آية 110.

6) سورة الأعراف، آية 180.

فهدى والذي أخرج المرعى فجعله غثاء أحوى)[1]، (فعال لما يريد)[2] (ويعبدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقا من السماوات والأرض شيئا ولا يستطيعون فلا تضربوا لله الأمثال إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون)[3]، (إنما يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون)[4]، (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير)[5]"[6].

وقد يقول قائل: ما بال الإمام اقتصر في تأصيله للصفات الإلهية على سبع صفات فقط، هي: الحياة والقدرة والإرادة والعلم والسمع والبصر والكلام، أفلا يكون بهذا معطلا لأكثر الصفات الإلهية؟

والجواب في نظري بين واضح، وهو أن الإمام رحمه الله إنما اكتفى بذكر ما يجمع معاقد الصفات كلها، واقتصر على إيراد أصولها وأمهات أمهاتها، احتراما لمنهجه في تأليف الكتاب وهو الاختصار غير المخل، والاكتفاء بذكر القواعد والأصول التي يحصل بها الإيمان ويتحقق بها الإسلام، دون خوض في الفروع والجزئيات.

وليؤكد ابن باديس منهجه الوسطي في نفوس طلبته وعقولهم، حرص على تقرير بعض القواعد الجامعة في هذا الباب، ومنها:

قاعدةالإثبات: أي إثبات صفات الله تعالى الكاملة التي وصف بها نفسه ووصفه بها رسوله صلى الله عليه وسلم إثباتا بلا تمثيل ولا تكييف.

---

1) سورة الأعلى، آية 5.

2) سورة هود، آية 107.

3) سورة النحل، آية 73.

4) سورة البقرة، آية 169.

5) سورة الشورى، آية 11.

6) العقائد الإسلامية: 60، 61.

قال رحمه الله مقررا هذه القاعدة: "نثبت له تعالى ما أثبت لنفسه على لسان رسوله من ذاته وصفاته وأسمائه وأفعاله، وننتهي عند ذلك ولا نزيد عليه".ويلزم من هذه القاعدة التخلي عن محذور عظيم هو التكييف،وهو اعتقادالمثبت أن كيفية صفات الله تعالى كذا وكذا، وهو اعتقاد لا يخفى بطلانه بدليل السمع والعقل معا.

وقد بين ابن باديس بطلانه مستدلا لذلك على أن ما لا تحيط به العيون ولا تدركه العقول لا يصح الخوض في كيفياته، قال رحمه الله: "ولا تحيط العقول بذاته ولا بصفاته ولا بأسمائه، لقوله تعالى: (ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء) [1]، ولقوله صلى الله عليه وسلم: (لا أحصي ثناء عليك إنك كما أثنيت على نفسك)[2]، ولقوله صلى الله عليه وسلم في دعاء الكرب: (اللهم إني عبدك، وابن عبدك، وابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماض في حكمك، عدل في قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحدا من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همي)[3].

قاعدة التنزيه:أي إثبات صفات الكمال لله تعالى ونفي مشابهة صفاته لصفات المخلوقين.. ويلزم من هذا نفي التمثيل،وهو اعتقاد المثبت أن ما أثبته من صفات الله تعالى مماثل لصفات المخلوقين.

قال رحمه الله مبينا هذه القاعدة: "وننزهه عن مماثلة أو مشابهة بشيء من مخلوقاته"[4].

والتزاما بالمنهج الذي دأب عليه في سائر كتابه، استدل رحمه الله في إثباته لهذه القاعدة بطائفة من الآيات الكريمة، منها: قوله تعالى: (ويحذركم الله

1) سورة البقرة آية 254.

2) صحيح مسلم: كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، رقم: 222.

3) مسند الإمام أحمد: 7/341.

4) العقائد الإسلامية لابن باديس: 59.

نفسه)[1]، وقوله تعالى: (تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك)[2]، (ويعبدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقا من السماوات والأرض شيئا ولا يستطيعون فلا تضربوا لله الأمثال إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون)[3]، وقوله تعالى: (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير)[4].

ونقل الشيخ محمد الصالح رمضان – راوي كتاب العقائد الإسلامية – عن شيخه ابن باديس كلاما يشرح هاتين القاعدتين، ويزيدهما بيانا ووضوحا، قال: "روينا البيتين التاليين عن أستاذنا الإمام وقت الدرس ولا ندريهما لمن؟ وهما:

فنحن معشر فريق السنة السالكين في طريق الجنة
نقول بالإثبات والتنزيه من غير تعطيل ولا تشبيه

وزاد عليهما معلقا فقال: "المعطلون هم الذين ينفون الصفات الإلهية والمشبهون هم الذين يشبهونها بصفات المخلوقات وكلاهما ضلال، أما السنيون فهم يثبتونها له تعالى وينزهونها عن التشبيه بالمخلوقات والتعطيل، تعطيل اللفظ عن دلالة معناه الحقيقي أو الخروج به إلى معنى آخر، والتشبيه تشبيه الله بمخلوقاته ، فنحن نثبت لله ما أثبت الله لنفسه من أقوال أو أفعال أو صفات ، ولا نشبهه في شيء من ذلك بالمخلوقات ، ولا غرابة في إثبات شيء مع عدم تكييفه، فالإنسان يثبت أن بين جنبيه نفسا ولكن لا يستطيع تكييفها كذلك نثبت صفات الله بلا كيف"[5].

1) سورة آل عمران، آية 28.
2) سورة المائدة، آية 116.
3) سورة النحل، آية 73.
4) سورة الشورى، آية 11.
5) العقائد الإسلامية: 58، 59.

ثالثا - الوسطية في باب القدر:

اختلف المسلمون في باب القدر طرائق قددا، وذهبوا فيه مذاهب شتى. فالقدرية نفوا القدر، وقالوا: إن أفعال العباد وطاعتهم ومعاصيهم لا تدخل تحت قضاء الله وقدره. فالله تعالى في اعتقادهم لم يخلق أفعال العباد ولا أرادها منهم، بل العباد مستقلون بأفعالهم، فالعبد هو الخالق لفعله، وهو المريد له إرادة مستقلة.

أما الجبرية فغالوا في إثبات القدر، فقالوا: إن العبد مجبور على فعله، فهو كالريشة في الهواء لا فعل له ولا قدرة ولا مشيئة.

لقد نظر الإمام ابن باديس رحمه الله في هاذين المنهجين المتعارضين، ثم خط لنفسه طريقا وسطا، هو طريق القرآن، فاهتدى إلى أن الله تعالى هو خالق كل شيء، وهو خالق المخلوق كله ذاته وصفاته وأفعاله... فالإنسان لا يخرج في جميع أفعاله عن مشيئة الله تعالى، إلا أن له اختيارا ومشيئة يجدها في نفسه، وبهما يكون مكلفا، وبهما يحاسب ويجازى عن أفعاله وتصرفاته. وقد استعمل رحمه الله في تعبيره عن منهجه في هذه المسألة مصطلح "الكسب" وهو مصطلح قرآني أصيل كما سيتبين لنا من الآيات القرآنية التي ساقها.

قال رحمه الله: "ومن توحيده تعالى في ربوبيته: اعتقاد أن العبد لا يخلق أفعال نفسه، فهو لم يخلق ذاته ولم يخلق أفعاله، فهو كله مخلوق لله ذاته وصفاته وأفعاله، غير أن له مباشرة لأفعاله باختياره، فبذلك كانت أعمالا له وكان مسؤولا عنها، ومجازى عليها، وتلك المباشرة هي كسبه واكتسابه. فسمى العبد عاملا وكاسبا ومكتسبا، ولا يسمى خالقا. لعموم قوله تعالى: (هل من خالق غير الله)[1] (لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت)[2] (فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره)[3]"[4].

1) سورة فاطر، آية 35.

2) سورة البقرة، آية 286.

3) سورة الزلزلة، آية 8.

4) العقائد الإسلامية: 69، 70.

وقال في معرض آخر: "ومن توحيده تعالى في ربوبيته: اعتقاد أن العبد لا يخرج في تصرفاته عن مشيئة الله غير أن له اختيارا يجده بالضرورة من نفسه، ومشيئة يجدها كذلك فيما يمكنه من أفعاله كان بهما مكلفا، ثم هو لا يخرج بها عن مشيئة الله. لقوله تعالى: (وما تشاؤون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليما حكيما)[1] (وما تشاؤون إلا أن يشاء الله رب العالمين)[2]، وقوله تعالى: (ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله)[3]، (ولو شاء ربك ما فعلوه)4، (ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا)[5] (فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر)"[6].

رابعا - الوسطية في باب الوعد والوعيد:

أثار حكم مرتكب الكبيرة خلافا شديدا بين المسلمين، وجعله بعض مؤرخي الفرق سببا مباشرا في ظهور المعتزلة. فقالت الخوارج: إن صاحب الكبيرة من المسلمين كالزاني وشارب الخمر كافر مخلد في النار. وغلبت المرجئة نصوص الرجاء على نصوص الوعيد، فقالوا: إن الإيمان هو التصديق القلبي، وإن الأعمال ليست من الإيمان، فلا يضر مع الإيمان معصية، فالعاصي لا يستحق دخول النار. أما المعتزلة فيرون أن مرتكب الكبيرة، لا مؤمن ولا كافر، بل له اسم بين الاسمين وحكم بين الحكمين، وهذا الحكم هو ما يسمى عندهم بالمنزلة بين المنزلتين.

1) سورة الإنسان، آية 30.

2) سورة التكوير، آية 29.

3) سورة الأنعام: 111.

4) سورة الأنعام، آية 112.

5) سورة يونس، آية 99.

6) العقائد الإسلامية : 69، 70.

واختار ابن باديس مسلك التوسط والاعتدال في هذه المسألة، وسلك فيها مسلك أهل السنة والجماعة .. وهو أن المسلم إذا ارتكب معصية من الكبائر لا يخرج من الإسلام، بل هو ناقص الإيمان، فهو مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته، وهو في الآخرة تحت مشيئة الله تعالى، إن شاء عفا عنه وإن شاء عذبه ثم يدخله الجنة.

يقول ابن باديس مقررا ما تقدم: "من ضيع الأعمال لم يخرج من دائرة الإيمان"[1].

ويقول في موضع آخر: "من ارتكب المعاصي سمي فاسقا حتى يتوب"[2].

ويستدل رحمه الله لمنهجه الوسطي هذا، بطائفة من الآيات القرآنية، منها: قوله تعالى: (بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون)[3]، وقوله تعالى: (والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا وأولئك هم الفاسقون إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم)[4].

---

1) العقائد الإسلامية: 51.

2) نفسه.

3) سورة الحجرات، آية 11.

4) سورة النور، آية 4.

خاتمة:

أعلنا في مقدمة بحثنا هذا، أن هدفنا ليس هو حشر ابن باديس في دائرة عقدية أو كلامية معينة، فاتجاهه العقدي في غاية الوضوح، لمن يملك مسكة من العدل والإنصاف، وأعلنا أيضا أن ابن باديس لم يكن يرمي من "العقائد الإسلامية" الانتصار لصالح مذهب معين، أو مقارعة الحجة بالحجة في سبيل إثبات عقيدة ما. إن هم الرجل كان أكبر من ذلك وأعظم، وهو تأسيس جيل قرآني مستوعب لأصول العقيدة الصافية السالمة من أدران التواكل المقيت والتقليد المعيب، جيل وسطي قادر على تحقيق التغيير المنشود والإصلاح المرغوب.

لقد تبين لنا في ثنايا هذا البحث أن ابن باديس يصدر من خلفية معرفية ومرجعية نظرية واضحتين، تقومان، من جملة ما تقومان عليه، على ربط العقيدة بالسلوك، وربطها بالقرآن الكريم والسنة النبوية، وجعلها دافعا للعمل والاجتهاد والإبداع.. وهي مرجعية أملتها اللحظة التاريخية والسياسية والثقافية التي عاشها ابن باديس، وفرضتها المهام المستعجلة التي أصبحت منوطة بالأمة حتى تلتحق بركب التقدم والحضارة.

وبهذا يمكن القول إن السياق الذي أنتج هذا المتن هو سياق النهضة والإصلاح، ولذلك نستطيع الجزم ونحن مطمئنين بأن كتاب "العقائد الإسلامية" ليس مجرد كتاب مدرسي جمعت فيه دروس الإمام ومحاضراته المسجدية، بل هو مشروع تجديدي متكامل الأركان، واضح العناصر والملامح. وهو ما بيناه في ثنايا هذا البحث.

مصادر البحث ومراجعه:

- "الآثار" لابن باديس، تحقيق عمار طالبي، دار ومكتبة الشركة الجزائرية، الطبعة الأولى، 1388 هـ – 1968م.

"أصول العقيدة السلفية عند العلامة ابن باديس" لأبي عبد الله محمد حاج عيسى الجزائري.

"صحيح البخاري"، حققه محمد زهير بناصر الناصر، نشر دار طوق النجاة، الطبعة الأولى: 1422 هـ.

"صحيح مسلم"، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

"العقائد الإسلامية لابن باديس"، رواية وتعليق محمد الصالح رمضان، دار الفتح – الشارقة، الطبعة الأولى: 1416 هـ – 1995 م.

"مسند أحمد"، تحقيق شعيب الأرناؤوط وعادل مرشد وآخرون، إشراف الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى: 1421 هـ – 2001 م.